بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النور

سورة مدنية، تبدأ بداية فريدة تدل علىٰ مدى اهتمام القرآن الكريم بالعنصر الأخلاقي في الحياة، ومدىٰ عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية، وفي فكرة الإسلام عن الحياة وذلك في إعلانها القوي، وتقريرها الحاسم، وفرضها الواضح لكل ما فيها من: حدود، وتكاليف، وآداب، وأخلاق، حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾

يعني: هذه ﴿سُورَةٌ﴾ من القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ نحن ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ﴾ دالة علىٰ توحيد الله وقدرته ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون، فتعملون بأحكامها وآدابها.

وفي بداية أحكامها يقول ربنا سبحانه وتعالىٰ:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ البكران اللذان لم يتزوجا ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ حدًّا لهما علىٰ جريمة الزنا، هذا ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ أي: شفقة وتهاون ﴿فِى﴾ تنفيذ ﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: حكمه وشرعه ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فالتزموا، ونفذوا ما أمرتم به، علىٰ الوجه المطلوب أيضًا ﴿وَلْيَشْهَدْ﴾ أي: يحضر ﴿عَذَابَهُمَا﴾ جلدهما ﴿طَآئِفَةٌ﴾ عدد ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين بالله تعالىٰ.

حكم آخر:

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

في الآية الكريمة تنفير من الزنا، وتبشيع أمره، والابتعاد عن أهله، حيث إن ﴿ٱلزَّانِي لَا﴾ يرغب عادة أن يَنكِحَ ويتزوج ﴿إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ إذ الشرك مثل الزنا.

﴿وَٱلزَّانِيَةُ﴾ كذلك ﴿لَا﴾ ترغب عادة أن ﴿يَنكِحُهَآ﴾ أي: يتزوجها ﴿إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ أي: الزنا ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الأخيار، كما هو محرم على غيرهم.

وبعد أن وضح الله حد الزنا ونفَّر عنه، قال عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾

أي: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ يقذفون بالزنا ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفيفات ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟﴾ على ما قالوه ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون أنهم رأوا عملية الزنا هذه، فهي تهمة باطلة، ويترتب عليها لصاحبها ما يلي:

أولًا: جلد القاذف ثمانين جلدة ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾.

ثانيًا: رد شهادته ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾.

ثالثًا: الحكم عليهم بالفسق ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله، المؤذون لعباد الله.

ثم يقول الله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

يعني: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ من هؤلاء القاذفين، وذلك بعد إقامة الحد عليهم،

بجلدهم ثمانين جلدة ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ عملهم، وسلوكهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنبهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

حيث يرد لهم اعتبارهم، ويزول وصفهم بالفسق، وأما شهادتهم فقد قيل تقبل، وقيل لا تقبل، وفي هذا تربية للمسلم على التريث الكامل في أقواله، والحفاظ على لسانه؛ صيانة لمجتمعه.

إذا كان هذا الذي قلناه قذف الأجنبيات، فما الحكم في قذف الزوجات؟ يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧﴾

أي: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ يقذفون ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ بالزنا ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ﴾ أربعة، يشهدون أنهم رأوا عملية الزنا هذه، وفي هذه الحالة لا نقول إنها تهمة باطلة؛ حيث لا شهود، ولا نقول إنها صحيحة وهي بلا شهود فما العمل إذن؟ يكون اللطف من الله، وتشريع لهذه الحالة جديد، يسمى باللعان.

وهو: أن يتلاعن الزوجان، أي: كل واحد يلعن نفسه إن كان كاذبًا، وكيفية ذلك توضحها الآيات الكريمة. ونبدأ بالزوج.

﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ على نفسه، ليثبت صدقه، فيما قذف به زوجه، ولا بينة عنده عليه، هي ﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا، وذلك بدلًا من الشهود الأربعة.

﴿وَالْخَامِسَةُ﴾ وهي شهادة زائدة، يقول بعدها ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رمى به زوجته من الزنا، فهل ينتهي الأمر على هذا؟

لا، فلا بد أن تتاح الفرصة للمرأة، لتدافع عن نفسها إن كانت مظلومة.

حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾

يعني: الذي ﴿يَدْرَؤُا۟﴾ والذي يدفع ﴿عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ وهو حد الزنا ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ﴾ أي: زوجها، الذي رماها بالزنا ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ﴾ وهي شهادة زائدة، تقول بعدها ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ﴾ زوجها ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا.

وبهذا، ينتهي اللعان بين الزوجين، وهو حكم جديد خاص بهما، وهو فضل من الله تعالىٰ عليهما، بل فضل من الله تعالىٰ علىٰ المسلمين، حقًّا:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

أي: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بكم لما كان هذا الحكم، ولفضحكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ يقبل من التائبين ﴿حَكِيمٌ﴾ في تشريعاته.

بعد أن تحدثت الآيات عن أحكام رمي المؤمنات العفيفات بالزنىٰ، وبعد أن تحدثت كذلك عن أحكام رمي الأزواج لزوجاتهن إذا حدث، تتحدث عن حادثة الإفك والكذب علىٰ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

في هذه الآية يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ أي: اختلقوا هذه الكذبة الشنيعة علىٰ السيدة عائشة رضي الله عنها وهي: حينما سبقها الجيش، دون أن يشعروا بغيابها من مكانها لقضاء حاجتها، لحق بها إليهم رجل من خيار المسلمين، ولما رآها وهي تلحق بهم ضعاف النفوس ومنافقو العقيدة، تحدثوا في شأنها بما لا يليق بمكانها، ولا بمكانتها من العفة والطهارة، وحدثت الشائعات التي روج لها شياطين الإنس والجن، ثم برَّأها الله تعالىٰ بهذه الآيات الكريمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ الكذب ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة منكم، لا تجزعوا يا مؤمنون ولا تفزعوا، ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ بما نزل معه من أحكام وتشريعات، وبراءات لبيت النبوة، وَرُبَّ ضارة نافعة.

ولكن، ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم﴾ وهم الذين تحدثوا به، وأشاعوه جزاء ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ في ذلك.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ بأن اختلقه أصلًا، وعمل جادًا وبهمّة على إشاعته ﴿لَهُۥ عَذَابٌ﴾ من الله ﴿عَظِيمٌ﴾ وهو المنافق عبد الله بن أبيّ ابن سلول.

وهكذا انتهت قصة الإفك إجمالًا، ولكن دروسها وعبرها، وتربياتها لم تنته، حيث يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾

أي: هل ظننتم خيرًا حين سمعتم هذا الكذب ونفيتموه، وكذبتموه؟ وفي ذلك درس للأمة كلها. أن يحسن المؤمنون والمؤمنات الظن بأنفسهم، ولا يَدَعوا للشيطان مدخلًا لديهم، ولا للظن السيئ طريقًا إليهم، وفي الحديث يقول المصطفى ﷺ: «**إياكم والظن.. فإن الظن: أكذب الحديث**» [رواه البخاري].

ثم يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

يعني: هلّا ﴿جَآءُو عَلَيْهِ﴾، قبل إشاعته ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ كما علمتهم هذه السورة في آياتها السابقة!! ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ وبالفعل لم يأتوا؛ لأنه ليس عندهم شهود؛ لأنه لم يحدث شيء أصلًا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ المستحقون عذابه وفي ذلك تنبيه للمسلم أن لا يهدف بما لا يعرف، ولا يتهم إلَّا ببينة.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

أي: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يا من أخطأتم، ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بكم ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بإمهالكم لتتوبوا ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ بالعفو عنكم: ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من هذا الكذب ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يهون بجانبه التوبيخ لكم، وإقامة الحد عليكم، وفيه دعوة للتعرض لفضل الله ورحمته، بحسن الأدب، وكثرة الطاعات.

ثم يقول المولىٰ عز وجل:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يعني: اذكروا حين كنتم تستقبلون هذا الكذب لا بأسماعكم، ولا بعقولكم، ولكن ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ ولم تفكروا ـ بالتالي ـ فيه، ولو فكرتم لعرفتم أنه كذب محض.

و لذلك كنتم ﴿تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وأنتم ـ في ذات الوقت ـ ﴿تَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ وهو في واقع الأمر ﴿عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

وفي ذلك دعوة لكل مسلم أن يستعمل عقله، وأن يحفظ لسانه إلَّا من ذكر الله، أو قول صادق فيه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفي الحديث يقول المصطفى ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا: يهوي بها في جهنم**» [رواه البخاري].

ثم يقول الحق جل جلاله:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

يعني: حينما سمعتم هذا الكلام هلّا ﴿قُلْتُمْ﴾ فورًا ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ الكلام، علىٰ ساحة بيت النبوة، وقلتم ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ لا ينبغي أن يسمع، ولا أن يقال، وفيه دعوة لأن ينزه المؤمن ساحة أخيه المؤمن من كل ما يسيء إليه، وأن لا يتكلم عليه إلَّا بخير، بل عليه أن يرد غيبته.

ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ: «**من رد عن عرض أخيه: رد الله عن وجهه النار يوم القيامة**» .[رواه الترمذي، وقال: حديث حسن].

ثم يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

أي: لا تعودوا لمثل هذا الذنب قذفًا، أو استماعًا، أو نشرًا وإشاعة ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياء ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حريصين علىٰ مرضاة الله، والله عز وجل يبين ﴿لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ الواضحات بالأحكام والشرائع والآداب؛ ليقيكم شر الوقوع في المهالك.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما ينفعكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه لكم.

وهذا يدفع المسلم إلىٰ البحث في شرع الله، عن الحكم والأسرار، التي تعينه علىٰ طاعة الله. ثم يقول جل ذكره:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ أو يرغبون، أو يساعدون ﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ﴾ إخبارًا عنها، أو دعوة لها، أو ممارسة لها ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أو في مجتمعاتهم، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بحقارة القدر، وهوان النفس، وإقامة الحد عليه لو كان شهود، ولهم كذلك عذاب أليم في ﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾إن لم يتوبوا قبل موتهم.

وفي ذلك: أن مَن يحب إشاعة الفاحشة، فضلاً عن من يشيعها فعلًا أو يأمر بإشاعتها، أو يساعد علىٰ ذلك، أو يرضىٰ ـ علىٰ الأقل ـ بإشاعتها في الذين آمنوا، وبين صفوفهم، وفي بيوتهم، وفي شوارعهم، ومنتدياتهم، ومجتمعاتهم، بنفسه أو بأية وسيلة من الوسائل؛ فجرمه كبير، وعقابه عند الله عظيم.

ثم يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

أي: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يا مؤمنون ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بمن أخطأ منكم، حيث تاب علىٰ مَن تاب، وطهر بالحد مَن أقيم عليه الحد، لكان أمرًا آخر لا تحمد عقباه لكم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بذلك ﴿رَءُوفٌ﴾ بعباده ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

وبهذا انتهت قصة الإفك تفصيلًا، ولكن بقيت دروس منها علىٰ قدر كبير من الأهمية للمسلمين ومجتمعاتهم.

ثم يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

يعني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إن هذه الكذبة التي كانت والفتنة التي تربت عليها ـ إنما هي من عمل الشيطان: فاحذروا، و ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ﴾ أي: وساوس ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وما يأمر به من أقوال السوء والأفعال الذميمة؛ لأنه مَن يتبع خطوات الشيطان يقع في الضلال والعصيان ثم يهلك، حيث إن الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ هذا ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بتحذيركم منه، وتنبيهكم لعداوته وخطره ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ بفضله ورحمته ﴿يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ من خلقه، وينقذه من الضلال والهلاك ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالهم، ونواياهم، ومَن يستحق الهداية منهم، ومَن يستحق الإضلال، وفي هذا تنبيه لعداوة الشيطان، وتحذير واضح منه مشفوع بدليله، لذا يجب الامتثال له، والإفادة منه.

ثم يوجهنا رب العزة إلىٰ الصفح، والعفو، والإحسان، تقوية للمجتمع المسلم، وإشاعة للحب بين أفرده، حيث يقول المولىٰ عز وجل:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

نزلت هذه الآية بخصوص ما حدث من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، لمَّا حلف بعد نزول آيات براءة السيدة عائشة رضي الله عنها، أن يمنع النفقة عن قريبه الفقير، الذي تحدث وساهم في نشر الإفك بين المسلمين، ولم يُقِرُّه القرآن علىٰ ما فعل، حتىٰ لا يكون سببًا في شيوع القطيعة والعداوة بين الأقارب.

ومعنىٰ الآية: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلف ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ﴾ في الدين ﴿مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ في المال ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولو أساؤوا إليكم ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ أي: أولوا الفضل منكم والسعة، عنهم، ويستروا عليهم إساءتهم، ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ فلا يعاقبوهم، بل يحسنوا إليهم.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ إذن فافعلوا معهم مثل ما تحبون أن يفعل الله معكم من العفو والصفح، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ويرحم، فتأدبوا بأدب الله، واغفروا وارحموا.

وعند ذلك استجاب أبو بكر فورًا، وأعاد النفقة، وقال: والله إنا نحب يا ربنا أن تغفر لنا، فهلَّا كنا كذلك؛ لنكون من المفلحين في الدنيا والآخرة!!

ثم تبين الآيات عاقبة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم، ويرمون المؤمنات المحصنات الفاضلات بما هن منه بريئات، حيث يقول ربنا عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

هذه الآيات الثلاث.. تبين: أن ﴿ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ بالفاحشة النساء المؤمنات ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفيفات، البعيدات عن كل فتنة وموطن شبهة ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ السليمات الصدور، النقيات القلوب، اللآئي ليس فيهن دهاء ولا مكر، والذين يرمون هؤلاء بالفاحشة زورًا وبهتانًا، لهم من العقوبات ثلاثة أشياء:

الأول: ﴿لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: يكونون ملعونين، مطرودين من رحمة الله في الدنيا والآخرة إن لم يتوبوا، وتقبل توبتهم، حيث إن مَن كان ملعونًا في الدنيا فهو ملعون في الآخرة، ومن كان ملعونًا في الآخرة، فإنه لا يكون من أهل الجنة.

الثاني: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لهم عذاب شديد يوم القيامة، يوم ينكرون ما كانوا يعملون، فتشهد عليهم أعضاؤهم، ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم وجلودهم فيقولون: ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١].

الثالث: يوفيهم الله يوم القيامة جزاءهم، لا ينقص منه شيء.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي: جزاءهم العادل، الذي يستحقونه بلا زيادة ولا نقصان، بسبب ما أشاعوه من سوء في المجتمع المسلم، وما رموا به زورًا عفيفات المسلمين.

ثم يكون الدرس الأخير من دورس قصة الإفك في الآية التالية:

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

وفي هذه الآية تقرير لسنة إلٰهية يوضحها الحديث الشريف من قوله ﷺ:

«الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» [رواه: مسلم].

والمعنىٰ: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ من النساء، ومن الكلمات ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الناس.

﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ من الناس ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ من النساء، ومن الكلمات.

﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ من النساء، ومن الكلمات ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الناس، ﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾ من الناس ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ من الناس، ومن الكلمات، وعلىٰ هذا فالطيبون يدخل فيهم وعلىٰ رأسهم ﷺ وآل بيته الكرام بمن فيهم أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها.

ولذلك يقول رب العزة في شهادة إلٰهية واضحة، وتبرئة علنية، لبيت النبي ﷺ وآله الكرام ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الطيبون والطيبات الذين جمعهم الله بعنايته، وحفظهم برعايته ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ عليهم، وفضلًا عن ذلك فإن ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ عند الله في جنات النعيم، جزاء إيمانهم، وعملهم الصالح، وصبرهم علىٰ

الأذىٰ، والآية تعزر ثقة المسلم بأهله، وبإخوانه المسلمين وتعزز ـ كذلك ـ ثقة الرجل المسلم بزوجته، وثقة المرأة المسلمة بزوجها.

ويلاحظ: أن الأحكام ـ التي سبق الحديث عنها من أول السورة إلىٰ هنا ـ هي ما يُسمىٰ بالأحكام العلاجية، لأمراض وقعت وتقع ثم يليها ـ ابتداءً من هنا ـ حديث عن الأحكام الوقائية، التي تحول عند الإلتزام بها إلىٰ عدم الوقوع في الأخطاء السابقة، ومن هذه الأحكام آداب الاستئذان في دخول البيوت، يقول الله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾

يعني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عليكم في موضوع الاستئذان بثلاثة أشياء:

الأول: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ أي: بيوتًا لا تملكونها، وتقيمون فيها، أو لا تستأجرونها، وتقيمون فيها أيضًا.

﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ أي: تستأذنوا، وتجدون الأنس بكم من الآذن لكم في الدخول ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الدخول بهذا الشكل ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من الدخول بغير استئذان، أو مع إذنٍ لا أُنْسَ بكم فيه، وكان ذلك التشريع ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ هذه الخيرية، فتعملون بهذا الحكم، وتداومون عليه.

الثاني: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ﴾ أي: في البيوت التي تريدون دخولها ﴿أَحَدٗا﴾ بالمرة، أو أحدًا ممن لا يملك الإذن لكم بالدخول ﴿فَلَا تَدۡخُلُوهَا﴾ حتىٰ ولو كانت لكم بها مصلحة، ما دام أهلها غير موجودين، أو ما دام مَن يملك الإذن منهم غائبًا، وهذا المنع مستمر ﴿حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ ممن يملك الإذن، فادخلوها إذًا، ولا حرج عليكم.

الثالث: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ﴾ بعد الاستئذان، أو قبله ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾ ولا تدخلوا

﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ وانصرفوا فورًا، ولا تلحُّوا في الاستئذان، ولا تصرُّوا على الانتظار، حتىٰ يؤذن لكم إذْ للناس أعذار، فكونوا أهلًا لقبولها بذلك الرجوع؛ استجابة لأمر الله ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أطيب وأطهر؛ لما فيه من سلامة الصدور، والبعد عن الإحراج.

هذا، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ استجابة لحكم الله، أو عنادًا، أو إهمالًا لتنفيذ هذا الحكم ﴿عَلِيمٌ﴾ فيجازي كل امرئ بما يناسب موقفه.

لمَّا نزلت هذه الآيات، سأل الصحابة عن حكم الاستئذان في دخول الأماكن العامة، فنزل قوله تعالىٰ:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

يعني: لا حرج عليكم ولا إثم في ﴿أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا﴾ بدون استئذان في دخولها، إذا توافر فيها شرطان:

الأول: أن تكون ﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أي: ليست سكنًا خاصًا، مثل: الفنادق ودور العلم، ودور العبادة.. إلخ.

الثاني: أن يكون ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ أي: مصلحة ومنفعة لكم، مادية كانت أو معنوية.

هذا، ولمَّا كان هذا الإذن العام، بدخول هذه الأماكن العامة قد يستتبعه دخول بعض الناس لأغراض غير مشروعة، فقد ذيل المولى سبحانه هذا التصريح العام في الدخول بتحذير من عواقب سوء استعمال هذه المرافق العامة، وعدم مشروعية نوايا الداخلين إليها، بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ من أسباب غير حقيقية في دخولها ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ من أسباب حقيقية خبيثة.

وهذا تهديد يضمن لهذه المرافق العامة حسن استعمالها، ودوام نفعها، والبعد عن أن تكون بؤر إفساد، ومراكز إضرار بالمسلمين ومجتمعاتهم.

ثم تعرض السورة الكريمة لنوع آخر هام من الأحكام الكلية الوقائية الموجَّهة للمؤمنين جميعًا، والتي يندرج تحتها حكم المستأذنين في دخول البيوت كذلك، ألا وهي أحكام غض البصر وحفظ الفروج، يقول الله تعالىٰ:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أي: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما يلي:

أولًا: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ عما حرم الله، ويقتصروا بالنظر إلىٰ ما أحل الله.

ثانيًا: ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ﴾ من الزنا، ومن النظر إلىٰ غير زوج أو زوجة، ومن التعرية لها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الغض من البصر، والاكتفاء به علىٰ ما يحل، وأيضًا: حفظ الفروج ﴿أَزْكَىٰ﴾ أطهر ﴿لَهُمْ ۗ﴾ من دنس الإثم، وأنقىٰ لدينهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ بالبصر، وبالفروج، فعليهم أن يكونوا علىٰ تقوىٰ وعلىٰ حذر.

ويلاحظ: أن هذا الحكم ليس خاصًا بالرجال فقط، بل هو للنساء أيضًا، يقول العليم الخبير:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

أي: و ـ كما قلت للمؤمنين ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ ما يلي:

أولًا: ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ حيث إنه لا يحل للمرأة أن تنظر إلىٰ الرجل الأجنبي عنها، كما يحرم عليه ذلك، سواءً بسواء.

ثانيًا: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عما لا يحل لهن فعله بها، وفيها.

ثالثًا: ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾ أي: ولا يظهرن ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ أي: شيئًا من أجسادهن

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وهو: الوجه، والكفين، والقدمين للفقيرات.

رابعًا: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ أي: يغطين ويسترن ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ أي: بالخمار، وهو الذي يغطى به ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني: رؤوسهن، وأعناقهن، وصدورهن.

خامسًا: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الخفية، وهي ما عدا الوجه والكفين ﴿إِلَّا﴾ لهؤلاء: ﴿لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: أزواجهن وهؤلاء يباح لهم النظر إلى كل شيء منها. ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ ويدخل في هؤلاء، الأجداد.

ويلاحظ أن دائرة النظر لهؤلاء تختلف عن دائرة النظر المباح للأزواج، وكذا من يأتي من الأصناف الباقية.

﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ حيث صاروا محارم للمرأة، وهم آباء الأزواج فقط ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ من نسب أو رضاع ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ من زوجات أخريات، حيث صاروا محارم لها ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ من نسب أو رضاع، ويدخل في ذلك سائر المحارم كالأعمام، والأخوال.

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: النساء المسلمات، ويرىٰ بعض العلماء أنهن النساء المختصات بهن بصحبة أو خدمة فقط، من النساء المسلمات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من النساء فقط مسلمات، أو كافرات، وأما العبيد: فهم كالأجانب من الرجال، سواءً بسواء.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي: غير أولي الحاجة إلى النساء، ولا شهوة لديهم نهائيًا، كمقطوع الآلة مثلًا ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ أي: الأطفال ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لا يفهمون الفرق بين الرجل والمرأة، ولا يعرفون العورات.

سادسًا: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ لينتبه لها الرجال و ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾. وفي هذا نهي للمرأة وتحريم لأي شيء تفعله، يلفت إليها أنظار الرجال، من زينة، وثياب، وتعطر.. إلخ هذا.. ولأن هذه الأوامر والنواهي يدور عليها صلاح الفرد، وصلاح المجتمع..!! ولأن المرء لا يخلو من سهو أو تقصير، في أوامر الله ونواهيه، مهما اجتهد في حسن التنفيذ، ولأن توبة العبد

مطلوبة في كل حال فقد أمر الله تبارك وتعالىٰ عباده المؤمنين جميعًا قائلًا: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ عما بدر منكم من الأخطاء، وافعلوا ما أمركم الله به من الصفات الجميلة، واتركوا ما نهاكم عنه من الصفات الرذيلة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ حيث إن الفلاح كل الفلاح في الدنيا والآخرة، في فعل ما أمركم الله ورسوله به، وترك ما نهاكم الله ورسوله عنه.

وبعد الكلام عن غض البصر وحفظ الفرج: يكون الحديث عن حكم وقائي شامل للمؤمنين جميعًا.. وهو الحث علىٰ الزواج، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

هذا أمر من الله للأمة والمسؤولين فيها وعموم أفرادها بهذه الأشياء، من باب الستر والإصلاح للأفراد، والطهر والفلاح للمجتمع، وهذه الأشياء هي:

أولًا: ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ وهو أمر بتزويج غير المتزوجين وهما صنفان:

الصنف الأول : ﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ أي: غير المتزوجين عمومًا.

الصنف الثاني: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ﴾ ليحصن دينهم، ويحفظ عليهم صلاحهم.

﴿إِن يَكُونُواْ﴾ أي: أفراد هذين الصنفين ﴿فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾ وجوده وكرمه.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: عظيم الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحقه.

ثانيًا: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ مالًا يستطيعون به ﴿نِكَاحًا﴾ أي: زواجًا ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بمال يتزوج به، أو زوجة ترضىٰ باليسير، أو بكسر شهوته بالصيام، كما في الحديث الشريف.

ثالثًا: مساعدة العبيد علىٰ نوال حريتهم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ يريدون ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: المكاتبة علىٰ مال، لينال حريته ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ رجالًا أو نساءً ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾

أي: أمانة، وصلاحًا، وقدرة علىٰ الكسب الحلال.

وليس هذا فقط، بل يأمر ربنا بمساعدة هؤلاء، حيث يقول: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ وساعدوهم في تحقيق غرضهم، ونوال حريتهم ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ وأنعم عليكم به.

رابعًا: عدم الإكراه علىٰ البغاء.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ أي: إمائكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ الذي هو الزنا بأجر.

وذلك ﴿لِّتَبْتَغُوا۟﴾ وتريدون بهذا الإكراه ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من المال، أو الأولاد الذين يولدون منهن فيباعون بمال، وهذا نهي عن ذلك، وتحريم له.

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ علىٰ الزنىٰ، بعد هذا النهي والتحريم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ وعجزهن عن الامتناع ﴿غَفُورٌ﴾ لهن ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهن.

ثم يختم القسم الأول من السورة، وهو الخاص بالأحكام والتشريعات بقوله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ القرآن، فيه ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات، موضحات، لما فيه نفعكم وفلاحكم.

وكذلك أنزلنا إليكم ﴿مَّثَلًا﴾ خبرًا وقصصًا ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ سبقوا ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾ تبين حسن عاقبة المتقين، وسوء نهاية الطغاة العاصين.

وكذلك أنزلنا إليكم ﴿مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ينتفعون بها، ومَن أراد النفع بها معهم.

وبعد هذه التشريعات، وهذه التوجيهات، التي عالج الله بها الكيان البشري حتىٰ أشرق بالنور، واستشرف النور، وأصبح علىٰ استعداد لتلقي الفيض الإلهي في عالم كله نور؛ يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

يعني: ﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾ أي: هادي أهل ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ وهداه، الذي يقذفه في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وهي الكوَّة أي: الفتحة غير النافذة في الحائط، والتي تكون أجمع للضوء ﴿فِيهَا﴾ أي: في المشكاة ﴿مِصْبَاحٌ﴾ سراج منير، ضخم ثاقب، و هذا ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ أي: في قنديل من زجاج صاف.

و هذه ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ التي فيها المصباح: مضيئة ضوءًا باهرًا ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أي: كوكب من لؤلؤ عظيم كبير.

وهذا المصباح كذلك ﴿يُوقَدُ﴾ ويستمد وقوده وضوءه ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ كثيرة المنافع ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ هذه الشجرة الزيتونة، التي يستمد المصباح وقوده منها: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ بل في مكان وسط ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من صفائه ونقائه: ﴿يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: يضيء ويتلألأ من غير نار.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: هذا مثل نور الله تعالىٰ وهداه في قلب المؤمن، ما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار زاد ضوؤه، كذلك قلب المؤمن: يعمل بالهدىٰ قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم: زاده هدًى علىٰ هدًى، ونورًا علىٰ نور.

نعم، هذا النور الذي شبه به الحق سبحانه وتعالىٰ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: نور مضاعف.

ثم ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ ويوفق لإصابة الحق، والسير علىٰ هداه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، إما بإلهام منه سبحانه لعبده، أو بنظر من العبد في الأدلة.

هذا، و من فضل الله علىٰ عباده ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ بهذا الشكل ﴿ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ تقريبًا لعقولهم، ليفهموا، فيعتبروا، فيؤمنوا، ويزدادوا هدًى ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

لمَّا ضرب المولىٰ سبحانه المثل لقلب المؤمن، وما فيه من الهدىٰ والعلم، بالمصباح في الزجاجة الصافية، والمتوقد من زيت طيب؛ ذكر محل هذا المصباح وهي: المساجد، التي هي أحب البقاع إلىٰ الله في الأرض، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد، فقال سبحانه:

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾

أي: هذه القلوب المؤمنة مظنة وجودها ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ أي: أمر ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ أن تبنىٰ وتعظم، وتُبعد عن الفحش في القول، وتطهر من النجاسات والأقذار.

و أن ﴿يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ سبحانه، بالصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، ودروس العلم.. إلخ وهذا يفيد أن مدد الإيمان: وجوده في المساجد، وأن ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ وآناء الليل وأطراف النهار.

ولكن مَن هم هؤلاء الذين يسبحون له بالغدو والآصال؟ الجواب:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾

يعني: هم ﴿رِجَالٌ﴾ موصوفون بصفات ثلاث:

الصفة الأولىٰ: أنهم يسبحون الله في بيوته، وهي المساجد، بالغدو والآصال. أصبحت همتهم سامية، وعزائمهم عالية، تعلقت قلوبهم بالمساجد، وتطهرت أرواحهم، وزكت نفوسهم من المساجد، وكان من أثر ذلك أن صلحت بهم البلاد، وسعدت بهم العباد، وصار خيرهم عميمًا، وشرهم عديمًا.

الصفة الثانية: أنهم لا تشغلهم الدنيا بزخارفها عن طاعة الله، وحسن عبادته، والاستعداد للقائه، ولذلك ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ حيث إنهم: يؤدون لله حقه، وللمجتمع المسلم حقه، أفراداً وجماعة.

الصفة الثالثة: أنهم لا يغترون بعبادتهم، ولا بتجارتهم، عن طلب مرضاة الله، حيث تراهم دائمًا ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ من شدة الفزع، وعظمة الأهوال.

وما كل ذلك.. إلَّا:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

يعني: أنهم يفعلون ما يفعلون ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ فضلًا منه وكرمًا.

أيضًا ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ﴾ ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما في الحديث الشريف الذي [رواه: أحمد، والدارمي] ﴿وَٱللَّهُ﴾ من فضله وجوده ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ ما يشاء ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وبعد أن بين الله فضله على الذين يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار، ذكر المحرومين من هذا الفضل. فقال عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ۚ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

هذان مثلان ضربهما الله لأعمال نوعين من الكفار:

فأما الأول: فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم، الذين يحسبون أنهم على صواب في لأعمال والمعتقدات، وهم ليسوا كذلك، فمثلهم في ذلك: كالسراب الذي يُرى في الأرض عن بعد، كأنه ماء جار يترقرق.

وأما الثاني: فهو للكفار أصحاب الجهل المركب، المقلدون لأئمة الكفر، الصم البكم الذين لا يعقلون، فمثلهم في ذلك: كظلمات في بحر لُجِّيّ.. إلخ.

والمعنىٰ: وأعمال ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ كهذين المثلين:

المثل الأول: ﴿كَسَرَابٍ﴾ وهو ما يرى في ضوء الشمس وقت الظهيرة في الصحراء، كأنه ماء جار ﴿بِقِيعَةٍ﴾ وهو المكان المنبسط المستوي من الأرض.

وهذا السراب ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ العطشان ﴿مَآءً﴾ فيذهب إليه؛ ليشرب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: ماءً، بل سرابًا.

وهذا مثال عمله الضائع، وعقيدته الفاسدة، ودعوته الهدامة وليس هذا فقط، بل ﴿وَجَدَ﴾ زبانية ﴿ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ فيأخذونه، ويلقونه إلىٰ جهنم ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾ الله فيها ﴿حِسَابَهُۥ﴾ ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب.

المثل الثاني: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ عميق، كثير الظلمات، أحواله مظلمة.. المصدر، والهدف، والمصير، ومع ذلك ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ يغطيه ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾.

موج فوق موج !!؟ نعم، ولقد اكتشف علماء البحار حديثًا أن هناك نوعين من الأمواج، ظاهرية، وباطنية، في بعض البحار العميقة، وهذا من الإعجاز الإلهي العلمي في القرآن، ثم يقول ربنا: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾ أي: هذا الموج الأعلىٰ الظاهري ﴿سَحَابٌ﴾ حقًّا إنها ﴿ظُلُمَٰتٌۢ﴾ متعددة: ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب.

﴿بَعْضُهَا﴾ كما هو واضح ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾، حتىٰ ﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾ المرء ﴿يَدَهُۥ﴾ وهو في هذه الظلمات ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾. وهذا مثال عمله الضائع؛ لخلوه عن نور الحق، ولأنها ليست علىٰ هدًى من الله، ولا يراد بها وجهه سبحانه ولا رضاه.

وهكذا ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ من عنده، يهديه به ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ بأي حال من الأحوال، وهؤلاء هم المحرومون حقًّا.

وبعد أن تحدث ربنا عز وجل عن المهتدين بنوره وهديه، وبعد أن تحدث ـ كذلك ـ عن الأشقياء المحرومين من هذه الهداية، يوجه الأنظار ويلفت البصائر إلىٰ آيات الله،

ودلائل التوحيد في الخلق؛ دعوة للاهتداء، وحثًا على الإيمان، فيقول المولى عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

يعني: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم أيها الإنسان علم اليقين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة، والإنس، الجن، والحيوان، حتى الجماد.. ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ كذلك تسبحه، وهي ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ لأجنحتها في الهواء.

﴿كُلٌّ﴾ أي: كل من في السموات والأرض، وما فيهما ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ من الله ﴿صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾ وحده ﴿عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ جميعًا، لا يخفى عليه شيء من طاعتهم، وتسبيحهم، وفي ذلك وعد للطائعين بالحسنى، ووعيد للعصاة بسوء الجزاء، وفي ذات الوقت دعوة لمزيد الطاعة من أوليائه، ومراجعة النفس، للبعيدين عن آياته.

ثم يقول: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو الحاكم وحده، وهو المتصرف وحده، وهو الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ في يوم القيامة، يوم الحساب، وذلك تأكيد لأن يستعمل الإنسان عقله، ويستقرئ آيات الله في كونه ونفسه؛ ليزداد إيمانًا وهدًى.

دعوة أخرى للإيمان بالله عز وجل، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾

يعني: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الإنسان، علم اليقين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿يُزْجِى﴾ أي: يسوق بقدرته ﴿سَحَابًا﴾ في السماء ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي: يجمعه بعد تفرق، ويضم

بعضه إلىٰ بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾ بقدرته ﴿رُكَامًا﴾ متراكمًا فوق بعضه البعض.

﴿فَتَرَى﴾ حينئذ ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: من بين هذه السحابات المتراكمة، بعضها فوق بعض.

أيضًا، ألم تر أيها الإنسان أن الله تعالىٰ ﴿يُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحاب: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ أي: كتل مثل الجبال ﴿فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ حبات الثلج الصغيرة.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بهذا البرد، ينزله رحمة منه علىٰ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، ومن بلاده ﴿وَيَصْرِفُهُۥ﴾ أي: هذا البرد، ويمنعه امتحانًا منه ﴿عَن مَّن يَشَآءُ﴾ من عباده، ومن بلاده.

وفوق ذلك: ﴿يَكَادُ سَنَا﴾ ضوء ﴿بَرْقِهِۦ﴾ الذي يحدث من احتكاك كتل السحاب ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يخطفها من شدة هذا الضوء، وهذا لا يمكن إلَّا بقدرة قادر حكيم، وهو الله وحده فهلَّا آمنتم به!!؟

ثم دعوة ثالثة للإيمان بالله، حيث يقول سبحانه:

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾

أي: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ﴾ بقدرته ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ فيأخذ من هذا، ويزيد في هذا مرة، والعكس مرة أخرىٰ كل ذلك لحكم يعرفها، وغايات يقدرها سبحانه.

نعم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ وعظة، ودليل علىٰ وحدانية الله ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

فهلَّا اعتبرتم واتعظتم وآمنتم!!؟

ثم دعوة رابعة لنفس الغرض، حيث يقول جل وعلا:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾

وهنا، يذكر الله تعالىٰ قدرته التامة، وسلطانه العظيم، في خلقه أنواعَ المخلوقات ـ علىٰ اختلاف أشكالها، وألوانها، وحركاتها، وسكناتها ـ من ماء واحد.

يقول تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ﴾ القادر ﴿خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾، والدواب أنواع: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم كالحية وما شاكلها.. وهذا هو أعجب المخلوقات مشياً، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطيور ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يتعذر عليه شيء من هذه المخلوقات ولا غيرها وما دام هو القادر فهو الهادي، فهلَّا اعتبرتم وطلبتم الهداية وآمنتم!!؟

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى معقبًا علىٰ هذه الآيات الواضحات الدالة علىٰ وحدانيته سبحانه وقدرته:

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

نعم، أنزل الله في القرآن آيات بينات مبينات، لا خفاء فيها ولا إبهام، لهداية الناس.

وهكذا، يهدي الله بلطفه ومشيئته ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام، الذي يوصل التزامًا به، وعملًا بأحكامه إلىٰ رضوان الله.

بعد أن اتضحت الآداب والأحكام التي يقوم عليها وينهض بسببها المجتمع المسلم، وبعد أن قُدِّمت دلائل التوحيد، وآيات القدرة، التي تدعو إلىٰ الإيمان وتعمل علىٰ زيادته، وكل ذلك لبناء الشخصية الإسلامية السوية، التي كلفها الله بقيادة الكون والحياة والأحياء بعد كل هذا تعود آيات السورة إلىٰ الآداب والتعاليم والأحكام، التي يربي القرآن عليها الجماعة المسلمة من خلال إعداد الفرد المسلم، ورعاية البيت المسلم وصولًا بها إلىٰ تحقيق الغاية المنشودة من الإنسان ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ومن ثَمَّ النجاح في قيادة الدنيا وأهلها إلىٰ السلام والعدل والحرية.

نعم، تعود آيات السورة لتطهر قلوب المسلمين من النفاق، حيث تكشف عن بعض صفات المنافقين؛ لنحذرهم، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

والمعنىٰ: أن المنافقين ﴿يَقُولُونَ﴾ بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ الله فيما يأمر به، والرسول فيما يحكم به، وبعد إعلان إيمانهم، وإظهار طاعتهم ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾ ويمتنع عن حكم الله ورسوله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ هؤلاء يحكم الله عليهم بقوله ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كما يَدَّعون بدليل أنهم ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ بحكم الله، تكون المفاجأة التي تكشف نفاقهم وهي: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن هذه الدعوة.

أما ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ ويريدون الوصول إليه ﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلىٰ الرسول، وإلىٰ شرع الله ﴿مُذْعِنِينَ﴾ طائعين.

ما السبب في تصرفاتهم هذه..؟

يقول تعالىٰ: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾. يعني: لا يخرج هذا السبب عن واحد من ثلاثة:

أن يكون موقفهم: لمرض في قلوبهم.

أو أن يكون ذلك: لشك عندهم في الله ورسوله.

أو أن يكون ثالثًا: لأنهم يخافون أن يجور عليهم محمد في الحكم ويظلمهم.

علىٰ كل حال ليس السبب هذا، ولا ذاك ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم، في موقفهم هذا.

إذا كان المنافقون يرفضون، فهناك المستجيبون:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾

أي: إنما المؤمنون علىٰ عكس ذلك فهم طائعون، ولذلك فهم المفلحون الفائزون كذلك كل ﴿مَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ﴾ أي: من غضب اللهِ عليه، ﴿وَيَتَّقْهِ﴾

بامتثال أمره واجتناب نهيه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ برضوانه.

اللهم اجعلنا منهم، واحشرنا معهم يا رب العالمين.

وبعد أن عرض الله تعالىٰ الصورة المقابلة للمنافقين، وهي صورة المؤمنين، إعلاءً لشأنهم وبيانًا لحسن امتثالهم، وتشويقًا للاقتداء بهم، وكشفًا للمنافقين، وتعرية لمواقفهم. تعود الآيات - مرة أخرى ـ إلىٰ المنافقين، لتحكي بعضًا من مواقفهم السيئة، وأكاذيبهم الواضحة، والتي يؤكدونها بأيمانهم المغلظة، حيث تقول هذه الآيات :

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾

لمَّا قال المنافقون للنبي ﷺ: أينما كنت نكن معك. لئن خرجت خرجنا، ولئن أقمت أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا نزلت هذه الآيات الكريمة تكشف كذبهم، وتفضح نفاقهم.

والمعنىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ علىٰ ما يقولون لك ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ في تأكيد كلامهم هذا ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ بالخروج للجهاد معك ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ أي: لا تحلفوا علىٰ ذلك؛ فـ ﴿طَاعَةٌ﴾ منكم ﴿مَّعْرُوفَةٌ﴾ واقعة فعلية، يشاهدها الجميع، ويعرفها منكم الكل.. أولىٰ من هذه الأيمان المغلظة، إن كنتم صادقين حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعرف الصادق من الكاذب، والمطيع من العاصي، خبير بضمائر عباده وما فيها، حتىٰ وإن أظهروا خلاف ما فيها.

ثم أكمل سبحانه الرد عليهم بقوله:

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ واتبعوا كتابه ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ واتبعوا سنته، بالفعل والقول معًا، وليس بالقول فقط، إن كنتم صادقين.

ثم يقول عز وجل لهم: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: تتولوا وتعرضوا ولا تستجيبوا، فما أضررتم إلَّا أنفسكم فقط.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي: ما على محمد ﷺ إلَّا ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من أداء الرسالة، وتبليغ الأمانة ﴿وَعَلَيْكُم﴾ أنتم ﴿مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ وكلفتم به من العمل بما بلغتم به، فإن أدى محمد ﷺ وكل داعية ما عليه، فقد خرج من عهدة التكليف والبلاغ.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ أنتم فيما يأمركم به، وينهاكم عنه ﴿تَهْتَدُواْ﴾ وتفلحوا، وإن أعرضتم، ولم تفعلوا ما أمركم به وبلغكم إياه، فقد عرضتم أنفسكم لسخط الله..!!

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ لكم، وليس له ولاية على قلوبكم، ولا عليه محاسبة لإعراضكم.

استعدوا لتلقي هذه البشارة الربانية لأهل الإيمان، الذين يحتكمون ـ ويقدمون الطاعة الكاملة ـ لله ولرسوله ﷺ..وهي في صورة وعد إلٰهي منه سبحانه، إذ يقول جل جلاله:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

هذه الآيات الثلاث الكريمة تتضمَّن تسعة أشياء:

ثلاثة منها: مطلوبة.

وثلاثة منها: موعودة.

وثلاثة منها : مرفوضة.

فإذا ما حققت الأمة الأمور المطلوبة، ونجت وتخلصت من المرفوضة، نالت الموعودة.

وتوضيح الكلام فيما يلي: المطالب الثلاثة..

هي: **الإيمان**: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وثقوا في هذا الدين، ونصرَ الله ﴿مِنكُمْ﴾ المؤمنون، وكذلك **العمل الصالح**: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ **وهي**: كل ما يسعد العباد، ويصلح البلاد، ويكون في إطار شرع الله.

وأخيراً العبادة: ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ بالمفهوم الشامل الكامل للعبادة ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾.

من تحلَّىٰ بهذه الثلاثة: حقَّق الله تعالىٰ له أمورًا ثلاثة هي:

الاستخلاف: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المؤمنين عليها، بعد إهلاك الظالمين.

وكذلك **التمكين للدين**: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلام بأن يُعلي شأنه، ويقوي أركانه، وينصر أتباعه.

وأخيراً، الأمن بعد الخوف: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ أي: يرزقهم الأمن والأمان في الدنيا، علىٰ أنفسهم وأهليهم وأوطانهم ومبادئهم..إلخ.

ومن المعلوم: أن هذه الموعودات الثلاثة لا تُنال ولا تتحقق إلَّا بعد الحذر، والبعد عن هذه المخاطر الثلاثة وهي:

خطر العصاة المنهزمين في الصف الإسلامي ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بوعد الله، ولم يصدق به، وفقد الثقة في هذا الدين ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التوضيح وهذا البيان: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن رحمة الله، ونوال نصره.

وكذلك: **خطر الغرور** حال الاتصاف بالمطلوب، أو بعد تحقَّق الموعود ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خضوعًا لله وطاعة له ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ رفقًا بالمحتاجين من عباد الله، وطاعة له ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ولا تقدموا قولكم علىٰ قوله، ولا فعلكم علىٰ فعله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، بسبب هذه الطاعة، والبعد عن الغرور.

وخطر الحرب النفسية، والتي هي أسرع بالهزيمة إلىٰ مَن تصوب إليه، من فعل أحدث آلات الحرب فيه و﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ﴾ لكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وسابقين عليكم ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

هذه الأشياء التسعة: فهمها المسلمون الأوائل؛ فعملوا بها..!!

فحقَّقوا ما طلب منهم، وتجنَّبوا ما خوفوا منه، فنالوا ما وعدوا به، وحقق الله لهم وعده، وهذه البشرىٰ باقية إلىٰ يوم القيامة..!! فهلَّا فهمناها، وعملنا بها.. لنخرج من أزماتنا..!! أدعوا الله أن يكون ذلك.

هذا وبعد ثمان وعشرين آية مرت علينا، كلها تمهيد يوجب الامتثال للأوامر، والابتعاد عن النواهي، يعود الحديث إلىٰ آداب الاستئذان مرة أخرىٰ، ولكن في هذه المرة عن الاستئذان داخل البيت الواحد.

يقول الله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨﴾

المعنىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ﴾ في الدخول عليكم ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ من العبيد والإماء، و كذلك الأطفال الصغار ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾.

وذلك: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ﴾ في اليوم والليلة. وهي:

الأولىٰ: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع.

الثانية: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ للراحة والقيلولة ﴿مِّنَ﴾ وقت ﴿ٱلظَّهِيرَةِ﴾.

الثالثة: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ لأنه وقت النوم، والتجرد من ثياب اليقظة.

هذه أوقات ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ ولا بد من الاستئذان فيها صيانة لهذه العورات.

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: العبيد والإماء، والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴿جُنَاحُۢ﴾ حرج وإثم في عدم الاستئذان في أي وقت ﴿بَعۡدَهُنَّۚ﴾ **أي بعد هذه الأوقات الثلاثة.**

والعلة في رفع الإثم؛ لعدم الاستئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة: أنهم ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ في الحركة اليومية المعتادة داخل البيت الواحد، ودخول ﴿بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ من أجل المصالح الحياتية ﴿كَذَٰلِكَ﴾ البيان الواضح المفيد: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ تعالىٰ ﴿لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ والأحكام التي تحتاجون إليها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في بيان مراده. **هذا:**

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

يعني: ما سبق، وهو حكم العبيد والإماء والأطفال دون الحلم في الاستئذان داخل البيت، وعلىٰ مَن فيه من الآباء والأمهات.

والحكم الآن أنه ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ﴾ الصغار ﴿مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ أي: سن الاحتلام، فقد تغير حكمهم عما سبق قبل الاحتلام.

يقول المولىٰ عز وجل: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم، في أي وقت من الأوقات، دون استثناء، وذلك ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ﴾ الرجال ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بلغوا الحلم ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ صيانة للعورات، وحماية للحريات.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ البيان الواضح المفيد ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ تعالىٰ ﴿لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وروائع تشريعه، التي تنتفعون بها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في بيان مراده.

والقواعد من النساء أَمَا وهن الكبيرات المسنات، لهن أحكام خاصة بهن.

ومن هذه الأحكام: ما يتعلق بالتستر والاستئذان؛ حيث إن أكثر ما يدخل عليهن الأقارب، ولذلك يقول المولىٰ سبحانه:

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

يعني: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الكبيرات ﴿ٱلَّٰتِى﴾ قعدن عن النكاح، أو عن الحيض، أو عن الاستمتاع، وأصبحن ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ ولا رغبة لهن فيه ولا تطلّعاً إليه ما حكمهن..؟ يقول ربنا تبارك وتعالىٰ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ إثم أو حرج، في ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ الظاهرة تخففًا منها، وهذا من باب التيسير عليهن.

ولكن بشرط أن يكن ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾ أي: مظهرات أو متعرضات للغير ﴿بِزِينَةٍ﴾ لينظر إليهن.

ومع هذا ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ عن وضع ثيابهن وخلعها؛ من باب المحافظة والستر والاحتياط ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ في الدنيا بالبعد عن مواطن الفتنة، وفي الآخرة بثواب حسن الامتثال.

هذا ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمَا يقلن، ويقال لهن ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في نفوسهن من الرغبة في طاعة الله، وعدم ذلك.

وما دام الأمر في الحكم السابق مع القواعد من النساء هو من باب التيسير عليهن، ورفع الحرج عنهن، فإن الله تعالىٰ يبيِّن حكمًا آخر هو ـ كذلك ـ من باب التيسير ورفع الحرج. يقول المولىٰ سبحانه:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

هذه الآية الكريمة أفادت الأحكام والآداب التالية:

أولًا: رفع الإثم عن أصحاب الأعذار في التخلف عن الجهاد، وفي تناول الطعام مع الأصحاء، وفي تناول الطعام من البيوت المذكورة في الآية.

ثانيًا: رفع الإثم عن المسلمين في الأكل مجتمعين مع بعضهم البعض، أو منفردين، دون قيد بهذا أو ذاك.

ثالثًا: الأمر بالسلام والتحية عند دخول البيوت.

والمعنى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي ليس على أي واحد من هؤلاء، إثم ولا مؤاخذة، فيما ذكر، من التخلف عن الجهاد، أو تناول الطعام مع الأصحاء، أو تناول الطعام من البيوت المذكورة.

﴿وَلَا﴾ حرج كذلك عليكم أيها الأصحاء، في الأكل أيضًا من البيوت المذكورة في الآية.

وكذلك ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿جُنَاحٌ﴾ أي: إثم وذنب، في ﴿أَن تَأْكُلُوا۟﴾ مع بعضكم البعض ﴿جَمِيعًا﴾ على طعام واحد ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ متفرقين.

وكل ذلك من باب الرخصة لكم، والتيسير عليكم، ولكن مع الأدب الذي ينبغي مراعاته عند تنفيذ ذلك.

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من البيوت المذكورة ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ﴾ أهلها، الذين هم من ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ دينًا وقرابة.

وذلك السلام ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ثابتة بأمره، مشروعة من لدنه سبحانه ﴿مُّبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ يرجى بها من الله زيادة الخير، وطيب الرزق.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ البيان الواضح المفيد ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ والأحكام والرخص ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أحكامه وتفهمون تشريعه وتشكرونه على رخصه وتيسيره.

أتذكرون أن السورة الكريمة بدأت بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١]..!!

وها هي تختم ـ كما سمعنا ـ بقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

والخطاب فيهما واضح أنه للمؤمنين.

لذا فقد بيَّن الله أهل هذا الإيمان الذين يتذكَّرون ويعقلون هذه الآيات، بقوله:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون في إيمانهم مَن وصفوا وتحققوا بهذه الأمور الثلاثة وهي:

أولًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ ووثقوا في دينه، وخضعوا لأحكامه.

ثانيًا: والذين آمنوا بـ ﴿رَسُولِهِۦ﴾ ﷺ، واقتدوا به، واتبعوا هديه وسنته.

ثالثًا: والذين ﴿إِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ﴾ مجتمعين ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي: يجمع له الناس، كالجهاد، والجمعة، والعيدين ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾ بعيدًا عنه ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ ويوافق لهم علىٰ الذهاب والانصراف.

وهذا الوصف الثالث علىٰ درجة كبيرة من الأهمية، حيث ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ ولا ينصرفون من عندك إلَّا بإذنك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ هم المؤمنون الكاملون الصادقون ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. هؤلاء عليك أن تأذن لهم.

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ الذي يعرض لهم، فالأمر مفوض لرأيك ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ أن تأذن له، ولا تأذن لمن شئت منهم أن لا تأذن له.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ حيث اضطرتهم ظروفهم أن يقدموا بعض أمور الدنيا علىٰ أمر الآخرة.

وبعد هذا التوجيه للأمة..!! وكذلك بعد هذا التشريف لمحمد ﷺ..!! يعلم الله المؤمنين كيفية الاستئذان وأدبه مع النبي ﷺ، حيث يقول لهم:

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

أي: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ عند مناداتكم عليه، أو استئذانكم منه ﴿كَدُعَآءِ﴾ كمناداة ﴿بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ بل عظّموه ووقروه.

وهذا لمن يستأذنون منه.

وهناك فريق لا يستأذن بالمرة، بل ينصرف متسللًا، دون إذن منه ﷺ، وهم المنافقون، وهؤلاء يهدّدهم الله عز وجل بقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ﴾ في خفية وتستر، وهذا مخالفة لأمره، الذي جمع الناس عليه، ومخالفة لأمرنا في وجوب طاعته، وعدم الانصراف دون إذنه ﷺ.

لذلك، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ من شيئين:

الأول: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ في الدنيا.

الثاني: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ﴾ في الآخرة.

أيها الأحباب إذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك..!! فالواجب الامتثال، وعدم المخالفة.

حيث إن هذا الأمر والتشريع من الله تعالىٰ الذي يهدِّد المخالفين قائلًا:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ۖ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

نعم، ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ من الموجودات بأسرها، خلقًا، وملكًا، وتصرفًا ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: يعلم يقينًا ما أنتم عليه في جميع أحوالكم.

وهذا خطاب للجميع، ثم يكون تهديد المنافقين بقوله ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ مع الخلائق كلها ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۚ﴾ كله ظاهرًا، وباطنًا، من سوء أعمالهم، ويجازيهم عليها بأسوأ منها، خاصة ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من الأشياء، كبيرًا كان أو صغيرًا.

* * *